دور الهجرة، والإسلام في تغيير دلالات اللغة

أ.د. عبد الحميد بوفاس جامعة عبد الحفيظ بوالصوف ، ميلة

إنّ الهجرة سواء أكانت داخلية أم خارجية ، بمعنى أن ينتقل الإنسان من مكان إقامته إلى مكان آخر داخل البلد الواحد ، أو انتقل من بلده الأصلي إلى بلد آخر ، يختلف عنه في العادات والنظم والتقاليد واللغة ، فإن تلك الحركة تؤثر أيما تأثير في اللغة أو في المعجم الذهني لدى الناطقين باللغة.

ويظهر ذلك التأثير بدرجة قوية أثناء الهجرة الطويلة أو التهجير الإجباري وفرض لغة ذلك المجتمع على المرحلين إليه ، فيضطرون إلى استعمالها ، قصد التأقلم والتمكّن من العيش . وقد يكون ذلك الاستعمال إراديا ناتجا عن رغبة في تعلّم لغة الآخر بحكم الإقامة ، وهذا يؤدي فيما بعد إلى استعمال لغة الآخر بشكل عفوي وطبيعي لدى الأجيال الثالثة مثلا التي تصبح لا تسمع أية كلمة عن لغتها الأصل .

إنّ التخلي عن اللغة الأصلية عند الأجيال الجديدة بفعل الزواج والمصاهرة أثناء الهجرة يشكّل لنا ما يعرف بالذخيرة اللغوية المتحرّكة ، بخلاف الذخيرة اللغوية الثابتة التي يمكن أن نلحظها لدى بعض الشعوب أو الطبقات من الناس في تمسكهم بلغتهم الأصلية أثناء ترحيلهم ، أو أثناء محاولة فرض سياسة لغوية معينة تفضي باستعمال لغة دون أخرى.

فمثلا عن الهجرة السلمية ، نذكر هجرة قوم من الساميين يعرفون بالأكّديين إلى بلاد ما بين النهرين أو ما يعرف (بسومر) وكونوا هناك مملكة في عهد الملك (سرجون). وقد انتصرت اللغة السامية على اللغة السومرية. [i]

وإذا نظرنا إلى أكبر حدث في تاريخ البشرية ألا وهو مجيء الإسلام للبشرية كافة ، لنجد القرآن الكريم قد أثرى اللغة العربية بكثير من المفردات ، وغيّر في كثير من الدلالات، وطوّر في كثير منها أيضا ، وهذّب أساليب العربية وطوّرها ، وفقا لتطور ورقي العقل العربي ، ووفقا لما يتماشى والدين الجدي وطبيعة الحياة الجديدة على جميع الأصعدة.

من المفردات ذات الدلالة الجديدة في القرآن الكريم : نذكر : الجاهلية ، جهنم ، الزكاة السحت ، الطامة، الفرقان ، الفسوق، الرهبانية ، الحواريون ، الترتيل ، وغيرها من المفردات الأخرى.

فكلمة جاهلية لم ترد في القرآن الكريم بمعاني الطيش أو الجهل مما ورد في أشعار العرب وأمثالهم ، وإنّما دلّت على فترة ما قبل الإسلام . وقد أورد السيوطي في كتابه المزهر كلاما لابن خالويه ، مفاده :" إنّ لفظ الجاهلية اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة."[ii]

ومن الألفاظ التي أصفى عليها القرآن دلالات جديدة ، نذكر : الحج ، التيمّم، الجحيم، السجود، الصلاة، الصيام، الأعراف، الركوع، السبت، العقاب، الفلاح، الفوز، النصر، والفتح، وغيرها من الألفاظ .

فالحج مثلا كان يعني القصد إلى أي مكان مطلقا ، ثم تخصص بما هو معظم ، ومعنى التعظيم موجود عند العرب قديما من خلال زيارتهم الكعبة والطواف حولها . إلا أنّ ذلك القصد لم يكن قصد التقرب إلى الله والرغبة في الحصول على الأجر وطلب المفغرة ، بقدر ما كان تقربا من الأوثان أو الأصنام التي تقربهم حسب اعتقادهم من الله. إلا أنّ الحج في الإسلام هو القصد إلى البيت الحرام أو مكة قصد تأدية النّسك ، فصار زيارة إلى مكان مخصوص ، قصد تأدية عبادة الله وحده ، إضافة إلى اعتبار الحج الركن الخامس من أركان الإسلام.

[i]- محمد حسن عبد العزيز : علم اللغة الاجتماعي : مكتبة الآداب، القاهرة، 2009 م، 255.

[ii]– السيوطي عبد الرحمن جلال الدين : المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار إحياء الكتب العربية ، (د ت) 301/1.